المحاضرة الأولى

تاريـــخ المؤسسات الوثائقية

(المكتبات القديمة)

تمهيد :

تعَدُّ دراسة تاريخ المؤسسات الوثائقية (المكتبات) دراسة لتطور الفكر الإنساني في ركوده وتألقه، لأن الكتاب هو تعبير عن هذا الفكر يعكس نتاجه ويُقدِّم أعماله، في حين تعد المكتبة دليلاً بارزاً على طريق هذا التطور، لأن ازدهارها في عصر من العصور هو دليل على رقي هذا العصر، وانطلاقه في مجال العطاء العلمي والإبداع الثقافي.

ويعد اكتشاف الكتابة وتطور أشكالها ووسائلها من أهم الخطوات التي خطاها الإنسان في انتقاله إلى الحياة المدنية، فقد مكَّنته من تدوين المعرفة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، كما جعلت التفكير الإنساني كله عملية متصلة ومستمرة، تتفاعل فيها الأفكار والثقافات والحضارات في سبيل التقدم وخلق المستقبل الأفضل، كما يعد ظهور الكتابة الأبجدية منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد فتحاً مجيداً في تاريخ الحضارة وانتقال الإنسان إلى ميدان واسع من ميادين المعرفة.

ومع تطور وتقدم الكتابة ازداد الاهتمام بكتابة الوثائق، وتسجيل المعارف والأنظمة، وجمع الوثائق والمخطوطات في أماكن خاصة، وتنظيمها بغية تسهيل الرجوع إليها عند الضرورة، لذا كان نشوء المكتبات ضرورة ملحة أملتها الحاجة إلى حفظ السجلات والوثائق الرسمية والقانونية، وذلك منذ الألف الثالث قبل الميلاد وسنتطرق الى دراستها الى غاية الحضارة العربية الاسلامية .

I. المكتبات في العصور القديمة (مكتبات بلاد الرافدين ومصر) :

1. مكتبات بلاد الرافدين :

1) في عهد السومريين :

وتعد من أقدم المكتبات المعروفة في العالم، إذ كشفت الحفريات الأثرية التي أجريت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي عن وجود مجموعة من المكتبات القديمة في وادي الرافدين (ما بين النهرين) تعود لعهود مختلفة منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. حيث يجمع المؤرخون على أن السومريين هم أول من جمع المحفوظات و السجلات الخاصة ، إلا أنه لا يمكن القول أن ما جمعوه في دور الحفظ تلك كان بالمفهوم الحديث للمكتبات. حيث لم تكن على النحو الذي نعهده اليوم من تبويب وتنسيق و فهرسة وبناء خاص بها ، إنما كانت مجموعة من المدونات الرسمية والنصوص الدينية وما يتعلق من بيع وشراء ، وكانت هذه المدونات تجمع في مواضع معلومة من المعابد والقصور والملكية وبعض الدور الخاصة ويطلق عليها دور السجلات. أو بيت الرقم.

2) في عهد البابليين والآشورين :

كانت مكتبات الحضارة البابلية والآشورية كالمكتبات السومرية لا تتعدى كونها دورا للمحفوظات والسجلات التي ترتب موضوعيا في أغلب الأحيان أو حسب أحجامها. فلم يخلوا معبد من المعابد البابلية والآشورية من هذه السجلات وكذلك الحال بالنسبة للقصور الملكية ففي كل قصر دار للسجلات تجمع ما يرد إلى القصر من رسائل وما يتعلق به من حسابات وأخذ وعطاء.

3) انواع المكتبات البابلية و الآشورية :

- **مجموعة دور المعبد** : أول المكتبات المعروفة كانت تشمل القوانين المقدسة والطقوس الدينية وسيرة الآلهة.

- **دار المحفوظات و السجلات الحكومية** : تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد دور المعبد يحفظ فيها كل ما يتصل بالضرائب والقوانين وأعمال الملوك والإتفاقيات والمواثيق.

- **مجموعة سجلات أنساب العائلات و المكتبات الخاصة** : تتضمن شتى الموضوعات التي تهم الأسر

كمعاملات التملك والميراث والوثائق التجارية و العقود التي تحفظ لأهميتها للرجوع إليها عند الضرورة.

– **المكتبات المدرسية** : وجدت لتدريس النساخ والكهنة ومتابعي الدراسة لعلوم ومعارف عصرهم خاصة في مجال الشريع والقوانين.

4) المشرفون على مكتبات البابلية والآشورية :

كان المشرف على مكتبات المعابد كاهنا عالي المرتبة له أعمال معينة منها :حفظ الألواح المهمشة أو مطموسة الكتابة واستبدالها بألواح جديدة سليمة الكتابة وتوسيع المكتبة بالحصول على نشخ الوثائق القديمة من المكتبات الأخرى أو إبعاد النساخ للمدن البعيدة لنسخ الألواح و المجيء بها.. أما مكتبات القصور فيرجع أمر الإشراف عليها لأبناء العائلات النبيلة.

أشهر مكتباتها : مكتبـــــــة نينوى :

تعد أقدم و أشهر مكتبات الملوك في العراق أقامها الملك الآشوري آشور بانيبال بعاصمته نينوى (الموصل حاليا) فقد كان آشور محبا للعلم شغوفا به عكس سابقيه الذين إنصرفوا في غالب الأحيان إلى شؤون الحرب لتوسيع ملكهم أو إنهمكوا في تشييد القصور والمباني الفخمة فآشور تعلم كثيرا مما كان متاحا من علوم وفنون وتميز بحسن ذوقه الأدبي وهذا ما تدل عليه أسطوانة من عهده منقوش عليها ما معناه : **أنا آشور بانيبال قد إختزنت في قصري حكمة نبو. و إستوعبت ما في الألواح المدونة وكل ما في الطين من خفايا ومشاكل.**

أمّا مقتنيات المكتبة فقد ضمت الكثير مما عرفه البشر أنذاك من العلم و الأدب والدين ، فيها مصنفات في التاريخ والأخبار والرسائل والسحر والمعرفة والشعر والقانون والتنجيم والفلك والجغرافيا والطب.

ويعتقد أن هذه المكتبة هي أعظم مكتبة عرفها العالم القديم، وإن كان بعض المؤرخين يرى أن مكتبة الإسكندرية كانت أفضل منها بكثير. ويعود الفضل في شهرة هذه المكتبة إلى الملك أشور بانيبال (668–627) ق.م ، حيث أمر أن يوضع في هذه المكتبة نسخ مبوبة من النصوص المستقاة من كافة محفوظات المدن والمعابد، وعين عدد من النساخ لإتمام هذا العمل، كما عين عددا من المختصين للمكتبة التي رتبت فيها الرقم بعناية تبعا لموضوعاتها، احتوت هذه على آلاف الرقم الطينية، اكتشفت منها أكثر من (25000) لوح، مع عدد يسير من أوراق البردي حوت مختلف الموضوعات كالعلوم، والآداب، والفنون والسحر والطقوس الدينية واللغة والخط وغيرها. ومن أهم ما أكتشف فيها مجموعة الألواح الأثنتي عشر التي تمثل دائرة معرف لقواعد اللغة الأشورية – البابلية، وسلسلة تاريخ بابل وآشور.

دمرت هذه المكتبة عندما غزا المديون والكلدانيون مدينة نينوى خلال نهاية القرن السابع ومطلع القرن السادس قبل الميلاد، وأشعلوا النار فأحرقت مكتبة الملك، ولكن النار لم تؤثر في الطين وخرجت سالمة من الكارثة، وهي اليوم محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن، وأصبحت من أشهر كنوزه، وأهم المصادر التاريخية حول الأشوريين وحضارتهم.

2. المكتبات المصرية :

تهيأت الظروف لوجود المكتبات على ضفاف واد النيل منذ آلاف السنين فالمصريون القدماء عرفوا الكتابة منذ 5000 سنة بالإضافة إلى توفر مادة الكتابة المتمثلة في ورق البردي ، فعرفت مصر الأنواع التالية من المكتبات :

- **مكتبات المعابد** : ضمت محفوظات متعلقة بالطقوس الدينية وأخبار الآلهة والتعاويذ.
- **مكتبات القصور** : ضمت رسائل الملوك الرسمية والمعاهدات والقوانين والأنظمة.
- **مكتبات خاصة بالنبلاء والرجال البارزين** : كانت تظم أخبار العائلات وقصص المغامرات والحروب والأسفار.

وقد كان الكتاب المصري عبارة على شكل لفافة من ورق البردي يطلق على الوجه إسم (Récto) أما الظهر (Verso) وتكون الكتابة على وجه واحد وأثناء الحفظ يكون وجه الكتابة إلى الداخل.
و توازي مكتبات وادي النيل من حيث الأهمية والقدم مكتبات وادي الرافدين، فقد عرفت المكتبات فيه أيضا منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبشكل خاص في عصر كل من الملك خوفو (2723–2709) ق.م. وهو من أهم ملوك الأسرة الرابعة، وأبنه الملك خفرع الذي خلفه في الحكم. كما ازدهت المكتبات أيضا في عصر الملك رمسيس الثاني (1300–1235) ق.م.

1) أشهر مكتباتها : مكتبة الإسكندرية :

أنشأها بطليموس الأول (283) ق.م. وهو أول ملوك أسرة خلفاء الإسكندر في مصر، ثم رعاها ابنه بطليموس الثاني رعاية خاصة، ومدها بأموال ضخمة، حتى ضاقت بما فيها من كتب عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، بعد أن أصبحت تضم عدة مئات ألاف من لفائف البردي، مما استجوب بناء مكتبة ثانية قريبة عرفت بالمكتبة "الإبنة" نسبة إلى المكتبة الأولى " الأم" أودع فيها 42800 مجلدا، ولما إرتقى بطليموس الثالث العرش ألزم جميع القادمين إلى الإسكندرية تسليم ما لديهم من كتب إلى مكتبتها إذا لم تكن هذه الكتب موجودة فيها، ويقال انه أمر بمصادرة جميع ما تحمله السفن الراسية في مياه الإسكندرية

من كتب لتودع المكتبة أيضا.

أشرف على هذه المكتبة مجموعة من مشاهير ذلك العصر في مقدمتهم الشاعر كاليماخوس (Callimachus)، الذي صنف مجموعات المكتبة البالغة 500 ألف لفافة بردي ووضع لها فهارس بلغ عدد ملفاتها 120ملف، رتب بعضها ترتيبا زمنيا، والبعض الأخر ترتيبا تبعا للموضوعات، ومن العلماء اللامعين الذين أشرفوا على هذه المكتبة أيضا أتوسنيس القورني (حوالي230)ق.م. الذي قاس محيط الأرض.

ويوجد شبه كبير بين مكتبة الإسكندرية ومكتبة نينوى من حيث كونهما مكتبتين ذو طابع عالمي، ولأن مؤسسيها من الملوك الحاكمين، فضلا عن التشابه الواضح بينهما في التنظيم الداخلي وفي معالجة المواد المكتبية، بالرغم من إختلاف مادة الكتابة لمحفوظاتهما (ألواح الطين في نينوى، وأوراق البردي في الإسكندرية)، ولكن بالرغم من هذا التشابه، ليس هناك ما يدل على وجود صلة مباشرة بين المكتبتين، فقد كان يفصلهما زمن طويل مقداره أربعة قرون تقريبا.

نالت مكتبة الإسكندرية حظا كبيرا من العناية والاهتمام في عهد الملكة كيلوباترا، إلا أن هذه العناية لم تستطيع حمايتها من الضربة الشديدة المؤلمة التي أصابتها أثناء الثورة على القيصر (Cesar) عام (48–47) ق.م إذ كانت هذه المكتبة من بين المباني التي أحرقت أثناء القتال الذي جرى بين الأساطيل المصرية وأساطيل قيصر عندما جاء إلى مصر منتقما، فاحترقت جميع السفن الراسية في ميناء الإسكندرية بسبب هذا القتال، وامتدت النار إلى المكتبة الأم لتلتهمها، نظرا لقرب بنائها من الشاطئ، ويبلغ عدد الكتب التي أتت عليها النيران قرابة (400000) لفافة. وقد حاول ماركوس أنطونيوس تعويض كليوباترة عنها بإهدائها مجموعة هامة من المجلدات تقدر بـ 200000 مجلد أخذها من مكتبة برجامون. إلا أن المكتبة لم تستطيع بعد هذا الحريق أن تسترد عظمتها السابقة، وإن كانت الحياة قد عادت إليها من جديد، وإستمرت في عطائها العلمي، إلى أن أحرق الإمبراطور أورليان الحي الملكي (البركيوم) وهو الحي الذي توجد فيه المكتبة الأم، فدمرت تدميرا جزئيا عام (272)م. ثم تدميرا كليا عام (389) م. عندما كبير الأساقفة الإسكندرية تيوفيليوس بإحراقها عن بكرة أبيها لكونها في نظره معقلا للآراء الهدامة. كما أبيدت المكتبة الإبنة إبادة تامة عندما دمر المسيحون الأوائل أيضا معبد سيرابيس في عهد الأسقف السابق الذكر، ويذكر المؤرخ أودسيوس انه في عام (416)م. لم يكن لهاتين المكتبتين أي وجود البتة ، مما يدل على أنه ليس للفتح العربي الإسلامي لمصر أية علاقة بإحراقهما، لأنهما لم تكونا موجودتين أصلا عندما فتح المسلمون مصر بقيادة عمر بن العاص عام (642)م. أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وفي هذا الخصوص تقول المستشرقة الألمانية زيكريد هونكه:" عندما دخل العرب الإسكندرية عام 642 م، لم يكن هناك منذ زمن طويل مكتبات عامة كبيرة، وأما ما أتهم به قائدهم عمر بن العاص من إحراق

لمكتبة الإسكندرية، والذي يعبر حتى اليوم عن صورة مفزعة للبربرية والوحشية، فقد ثبت في أكثر من مناسبة،وبعد أبحاث مستفيضة، انه مجرد اختلاق لا أساس له من الصحة، لأن عمر الذي فتح الإسكندرية هو نفسه عمر الذي ضرب المثل بتسامحه طوال فتوحاته، فحرم النهب والسلب والتخريب على جنوده، وعمل ما كان غريبا عن فهم الشرقيين القدماء والمسيحيين على حد سواء، لقد ضمن صراحة للمغلوبين حرية ممارسة شعائرهم الدينية المتوارثة.

3. مكتبات آسيا الصغرى:

1.3.مكتبة بيرجامون (Pergamon):

وهي أشهر مكتبات آسيا الصغرى في العالم القديم، وتعد أيضا من أهم مكتبات العالم القديم. أنشاها الملك أتالوس الأول (Attal.1)، لكنها لم تزدهر وتأخذ شهرتها إلا في عهد الملك يومينوس الثاني (Eumenus) وهو من أشهر ملوك الأتاليين وقد شجع على صناعة الرقوق واستخدموها كمادة للكتابة.

كانت مدينة بيرجامون تقع في جنوب – غرب آسيا الصغرى بالغرب من مدينة أنطاكية، وقد دلت الحفريات الأثرية على وجود هذه المكتبة قرب معبد أثينابولياس في المدينة، وكانت عبارة عن ردهة مكشوفة يحيط بها رواق ذو أعمدة مكونة من طابقين ألحقت به أربع قاعات، وجد في كبراها تمثال كبير لأثينا على قاعدته نقوش تمثل بعض كبار كتاب آسيا الصغرى آنذاك، وبينها نص منشور عن هوميروس ، وتمثل هذه المكتبة نمط بناء المكتبة القديمة، فيها قاعة للدرس والمطالعة، والمدخل تجمله التماثيل، والقاعات الباقية فمخازن للكتب والمطالعة، والمبنى كله ملحق بمعبد وكان معرض صور هذه المكتبة يحتوي على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون للاستمتاع بجمالها. على أن هذه المكتبة لم تنل يوما شهرة مكتبة الإسكندرية في الأواسط العلمية، غير أنها تركت دون شك أثرا واضحا في تاريخ الكتاب، إذ كان لها فضل كبير في نشر استعمال الرقوق للكتابة، وقد عرفت بلاد الإغريق المكتبات الخاصة والعامة منذ القرن الرابع قبل الميلاد، ويرجح أرسطو كان أول من أمتلك مكتبة خاصة تستحق الذكر، شجعه على ذلك الأسكندر المقدوني الذي مده بالمال لهذا الغرض.

كما عرفت المكتبات العامة لديهم منذ 330 ق.م. وكانت جل مجموعاتها عبارة عن هبات مواطنين أثرياء بدافع حب البلاد. ولم تكن مجموعاتها تعار للقراءة الخارجية.

2.3.مكتبة أغوسطوس (Ogostos):

كما كان الإمبراطور أوغسطس 28 ق.م. كثير الاهتمام بالمكتبات، وأسس مكتبتين عظيمتين، إحداهما للكتب اليونانية، والأخرى للكتب اللاتينية، ولكنهما أحرقتا عندما شبت النيران في رواق خلال القرون اللاحقة. ولم يكد القرن الرابع الميلادي يقبل حتى كان في روما وحدها 28 مكتبة. وقد اهتمت الإمبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية أيضا بالمكتبات أيضا، وزودتها بالكتب أكثرها باللغتين اليونانية واللاتينية. ومن أشهر المكتبات فيها مكتبة القيصر قسطنطين التي أسسها عام 353م إلى جانب أكاديميته العلمية التي اهتمت بنشر الثقافة في مدينة القسطنطينية والعالم البيزنطي. إلى أن هذه المكتبة تعرضت للحريق عام 475 م فأعيد بناؤها ثانية، ثم بقي مصيرها مجهولا، ويعتقد أنها عاشت حتى الحروب الصليبية، وان جزءا منها بقي حتى فتح العثمانيين للقسطنطينية عام 1453م.

قائمة المراجع :

- سبيتشفتش، ألكسندر، تاريخ الكتاب، ترجمة: محمد الأرناؤوط، ج1، عالم المعرفة، الكويت، 1993.
- هيسيل، ألفريد، تاريخ المكتبات، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، المكتبة الأكادمية، القاهرة، 1993.
- الحلوجي، عبد الستار، دراسات في الكتب و المكتبات، مكتبة مصباح، جدة، 1988.
- الخطيب، محمد عجاج، لمحات في المكتبة و البحث و المصادر، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.